

موقف بإسقاط التكليف الشرعية عند أقطاب الصوفية: تحليل نقدي
Concept of Abolition of Certain Duties of *Sharī'ah* for the
accomplished Sufis: A Critical Analysis

* الدكتور بادشاه رحمن

** هارون الرشيد

Abstract

This article discusses the question whether the accomplished Sufis are innocent and are exempted from duties of *Sharī'ah*? It argues that obligations of *Sharī'ah* are the same for Sufis and general Muslim community. There are no exceptions to the *Sharī'ah* rules for Sufis. Details of the forms and the manner of observance of four basic Islamic tenets duties (*Imāniāt*, *Aḥkām*, *Ibādāt* and *Akhlāqīāt*) enunciated in the Holy Quran, *Ḥadīth* and the books of *Fiqh* are identical for all Muslims. Sufis, like other Muslims, have to follow all the relevant commandments. It highlights the point that every Sufi is not authorized to practice *Ijtihād* and issue certain *Fatwa*. However it proclaims that the mistake of one Sufi cannot be taken as the mistake of all Sufis.

Keywords: Sufis, duties of *Sharī'ah*, elimination

إن من أسباب الهجوم على الصوفية أن خصومهم ربما عثروا على خطأ لأحد الصوفية فلا يكتفون بالهجوم على الصوفي وحده، بل يهاجمون الصوفية جميعاً، أي أنهم يؤخذون جمهور الصوفية بحريرة واحدة منهم. وليس الصوفية معصومين عن الخطأ، ولكن الإنصاف يقتضى أن يكون الهجوم أو الإتهام مقصوراً على من يستحقه خاصة إذا تبرأ الصوفية من هذا القول وردوه على صاحبه. وتجدر بالإشارة هنا إلى أن ثقة الصوفية بالتصوف، واعتزازهم به، وتفضيلهم له على سواه لم تمنع شيوخ الصوفية أنفسهم

* الاستاذ المساعد في قسم الدراسات الإسلامية والعربية، بجامعة ملاكند، دير (اسفل).

** المحاضر في قسم الدراسات الإسلامية والعربية، بجامعة ملاكند، دير (اسفل).

من توجيه بعض النقد إلى من ينتسبون إلى التصوف، فليس كل من انتسب إلى التصوف مخلصاً، وليس كل من اجتهد فيه مصيباً، بل وجد من بينهم أصحاب الأغراض والمنحرفون عن مقاصد التصوف التي حددها شيوخه، وقد كان الشيوخ يتعقبون هؤلاء، ويظهرون عوراتهم، و يتبرأون من أخطائهم. ومع ذلك فإننا ما يثير الدهشة الممزوجة بالغيب في آن واحد ممن يتعامل مع التصوف الإسلامي بمنهج تعميم الأحكام دون سند منطقي أو أساس علمي، فنرى بعض عناوين غريبة لأصحاب هذا الإتجاه ومنها: "فضائح الصوفية" وغيرها.

ويرصد علماء السنة المطهرة عددا ضخما من الأحاديث الموضوعة، فهل نرد الأحاديث الصحيحة خشية اعتقاد صحة الأحاديث الموضوعة؟ فإذا استرسلنا مع هذه النقطة وجدنا أفكار كثيرة ذات جذور أجنبية منحرفة حفرت مسارات و تسربت إلى الدراسات الإسلامية، فهل نرد علوم الإسلامية من أجلها؟ في واقع الأمر فطن علماء المسلمين المخلصون إلى هذه الأمور الهامة فعضوا على القرآن الكريم بالنواجذ و فضحوا أكاذيب الشيعة، وقاموا بعزل الأحاديث الموضوعة، و أفراد مؤلفات خاصة بها، وسلطوا الأضواء الكاشفة على الغريب والدخيل والإسرائيليات لوقاية المسلمين من شرورها، وحفظ الإسلام من أخطارها.

منهج البحث: إستخدمت خلال كتابة هذا البحث المنهج الوصفي المقارن.

دراسات السابقة: إستفدت خلال كتابة هذا البحث المتواضع عدة المصادر والمراجع التي لها علاقة المباشرة بالموضوع منها: كتاب الجانب النقدي في التصوف الإسلامي لأستاذ الدكتور محمد صلاح عبده محمد، والكتاب الشيعة والسنة لإحسان إلهي ظهير، والرسالة القشيرية لإمام القشيري، والكتاب القيم، الثورة الروحية في الإسلام لدكتور أبو العلا عفيفي وغير ذلك.

الهدف من الدراسة البحث

هو إبراز الأفكار الصحيحة والإبقاء عليها، وعزل الأفكار السقيمة و إبطالها، ومعيار الصحة والسقم هو الموافقة مع الكتاب والسنة للحكم بصحة الأفكار الصوفية، والحكم ببطلانها إذا اصطدمت بشئ منهما.

سوال أو الأطروحة البحث:

1. هل الصوفية جميعا معصومين عن الخطأ؟
2. هل نرد علوم الإسلام من أجل أفكار كثيرة ذات جذور أجنبية منحرفة التي حفرت مسارات و تسربت إلى الدراسات الإسلامية؟
3. هل التكاليف الشرعية فعلا ساقطة عن المشائخ الصوفية؟

ماهية التكليف الشرعى

قبل عن نتحدث عن ماهية التكليف الشرعى تجدر الإشارة إلى بعض الحقائق الهامة و هى: خلافة الإنسان في الأرض والميثاق الأول، والهدف من تخليق الإنسان. فبنسبة الحقيقة الأولى فقد جعل الله سبحانه و تعالى الإنسان خليفة له في الأرض، وفي ذلك يقول الحق عزوجل:

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ"⁽²⁾

وبالنسبة للحقية الثانية فإن القرآن الكريم يشير إليها في قوله تعالى:

"وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ"⁽³⁾

أما الحقية الثالثة المتعلقة بالهدف من خلق الإنسان فقد جاءت في قول الحق تبارك و تعالى:

"وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"⁽⁴⁾

ومن ذلك يبدو لنا الهدف النهائى من خلق الإنسان، وهو العبادة الموجهة لله عزوجل، وهو الهدف المعلن في هذه الآية المباركة، والذي سبقه إعلان استخلاف لربه في الأرض، وأخذ الميثاق على بنى آدم بربوبية الله عزوجل. والعبادة ترتبط ارتباطا وثيقا بحمل الإنسان للأمانة بعد رفض السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، ومن ناحية أخرى ترتبط بالتكليف أو هى الجانب العملى منه، بينما التكليف هو الأساس النظرى لها. فالله تبارك و تعالى يقول عن حمل الإنسان للأمانة:

* الاستاذ المساعد في قسم الدراسات الاسلامية والعربية ،بجامعة ملاكند، دير (اسفل) -

** المحاضر في قسم الدراسات الاسلامية والعربية ، بجامعة ملاكند، دير (اسفل) -

² - البقرة 02: 30 -

³ - الأعراف 07: 172، 173 -

⁴ - الذاريات 51: 56 -

"إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا"⁽⁵⁾ ٥

فإذا أردنا التعرف على ماهية التكليف الشرعية بالتفصيل وجدنا أن الحق تبارك و تعالى قد جعل التكليف منوطا بالعقلاء البالغين من المسلمين. و تنقسم تكاليف الشرع إلى:

1. عقائد، وهي الإيمان بما أمر الله تعالى عباده بالإيمان به.
2. أحكام: وهي الالتزام بما فرض الله عزوجل على عباده من عبادات و معاملات.
3. أخلاق: وهي ، التخلق بما أمرالله سبحانه عباده من الفضائل.

وفي ذلك كله نقرأ عددا كبيرا من من الأوامر والنواهي الواردة في القرآن الكريم و في السنة النبوية المطهرة، ونتعرف على تفصيلاتها من كتب الفقه الإسلامي، وكتب الأخلاق، والحديث عن ذلك كله بالتفصيل يستغرق أعمارا، و يستهلك رجالا، و يخرج عن طبيعة هذا البحث، ولهذا نكتفي بالإشارة إلى ما يخصنا، وهو التكاليف الشرعية في جانب العبادات، حيث وجه خصوم التصوف التهمة للصوفية زاعمين أنهم يقولون بإسقاطها، وتحليل هذه القضية هو هدف هذا البحث. وكما يعلم المسلمون فإن العبادات هي: الصلوة، والصيام، والزكاة، والحج بشروطها و ضوابطها الموجودة في كتب الفقه. و نستطيع القول إن: هذه العبادات هي أركان الإسلام مع الشهادتين أو هي الإسلام في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم رحمه الله بسنده عن رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم في قوله:

"الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، و أن محمدا رسول الله، وتقيم الصلوة، و تؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا"⁽⁶⁾.

فالصلوة والزكاة والصيام والحج هي أركان الإسلام العملية افترضها الله تبارك و تعالى على المسلمين، ثبتت فرضيتها بالقرآن الكريم، و بأحاديث سيدنا رسول الله ﷺ،وقد ألحق النبي ﷺ بكل فرض منها النوافل التي تتبعه. هذه العبادات من فرائض والنوافل أمر الإسلام بها، ووعد بالثواب على من يؤديها وتوعد بالعذاب من جحدها، كما توعد من لم يتخلق بأخلاق الإسلام،ومن لم تثمر فيه هذه العبادات ثمراتها الأخلاقية، إذ أنه من المعلوم ارتباط اركان الإسلام بالأخلاق، فالصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة تزكى و تطهر من أداها، والصيام يحول بين المرء و بين شهواته و أهوائه، والحج يستصحب سلوكا راقيا خاليا من الرفث والفسوق والجدال، وهذه النتائج الأخلاقية، مأخوذة من آي الذكر ومن الهدى

⁵ - الأحزاب 33: 72 -

⁶ - ابوالحسن مسلم بن حجاج النيسابوري ، صحيح مسلم (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1999) 1: 36 -

النبوى الكريم. وكما أن لأدائها مردودا إيجابيا واضحا على المستويين: الفردى والإجتماعى، فإن التقصير فيها أو الإستهتار بها له آثاره المدمرة للفرد والمجتمع على السواء، والأخطر من ذلك المجاهرة بذلك، أو الإستعلان بالمعصية والمخالفة لشرع الله تعالى على وجه العموم. ومن هنا فإنه ليس من المقبول: شرعا أو عقلا أو عرفا الإقرار بسلامة إسلام لقائلين بإسقاط التكاليف الشرعية، أو التماس الأعذار لهم⁽⁷⁾.

مفهوم التصوف

سنذكر فيما يلى مفهوم التصوف على سبيل الإجمال من الناهيتين اللغوية والإصطلاحية.

(الف) الإشتقاق اللغوى: كثرت آراء الباحثين فى التصوف حول الإشتقاق اللغوى للتصوف، ومنهم: شيوخ التصوف القدامى كالطوسى والقشيرى، ومنهم المستشرقون كماسينيون و نولدكه، والباحثون المسلمون كالكتور عبدالحليم محمود والكتور محمد أحمد مصطفى وغيرهم. و تتلخص اجتهاداتهم فى أن الأصل اللغوى للتصوف يأتى من أحد الإشتقاقات التالية:

صوفة: والمقصود به رجل نذرته أمه للكعبة المشرفة فى العصر الجاهلى، لأنها لا يعيش لها ولد، فلما وفّت بنذرهما تغير ولدها وقالت حينما رآته: "ما صار ابنى إلا صوفة" كما أطلق هذا اللقب على قبيلة كانت تتولى القيام ببعض المناسك فى الجاهلية.

صوفانة: وهى نبتة صحراوية.

أهل الصفة

وهم مجموعة من فقراء الصحابة كانوا يأوون إلى صفة فى المسجد النبوى.

الصف الأول: فهم فى محل القرب من الحق بين الناس كما يتميز أصحاب الصف الأول.

الصفة: والمقصود بها ما حسن منها. الصفاء. الصوف⁽⁸⁾. هذا مجمل الآراء القائلة بالإشتقاق اللغوى للكلمة من هذا الأصل أو ذاك. فالقول بأنهم سمو صوفية لبسهم الصوف أليق و أقرب إلى التواضع و يقرب أن يقال: لما آثروا الذبول والخمول والتواضع والإنكسار والتخفى والتوارى كانوا كالخرقة الملقاة، والصوفة المرمية التى لا يرغب فيها، ولا يلتفت إليها، فيقال صوفي نسبة إلى الصوفة، كما يقال كوفي نسبة إلى الكوفة، وهذا ما ذكره بعض أهل العلم، والمعنى المقصود به قريب و يلائم الإشتقاق، ولم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهاد والمتقشفين والعباد⁽⁹⁾.

⁷ - دكتور طلعت غنام، أضواء على التصوف (القاهرة: عالم الكتب، 1979) 27 الى 29.

⁸ - دكتور محمد أحمد مصطفى، علم التصوف (بيروت: مكتبة التراث الأزهرية، 1983) 12.

⁹ - أبو حفص عمر بن محمد السهروردى، عوارف المعارف (القاهرة: مكتبة عيسى الحلبي، 1957) 45 و 46.

(ب) المعنى الإصطلاحي لكلمة التصوف: على كثرة ما كتب في التصوف من مؤلفات قديمة و حديثة فإننا لا نجد تعريفا جامعاً مانعاً له، بل على العكس من ذلك وجدنا تعريفات متعددة تكاد تكون فوق الحصر، ولن نستطيع استقصاء و ذكر هذا العدد الهائل الذي تمتلئ به مصادر التصوف، ولكننا سننهج نهج المحاولات السابقة التي قسمت هذه التعريفات إلى مجموعات مثلما صنع الدكتور أبو العلا عفيفي، والدكتور إبراهيم بسيوني، وغيرهم الذين قسموا هذه التعريفات على نحو خاص، و في هذه الفقرة نستفيد من الجهود الطيب الذي قام به الأستاذ الدكتور محمد أحمد مصطفى في كتابه القيم " علم التصوف " برابه، ووفاء له، وتواصلًا بمع فكره.

تعريف تتصل بالزهد: وهو تعريف عند الكرخي: التصوف: الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيد الخلائق⁽¹⁰⁾.

وتعريف رويم: التصوف مبنى على ثلاثة خصال: التمسك بالفقر إلى الله، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والإختيار. تعريف ترتبط بالأخلاق: ومنها تعريف أبي محمد الجويري عندما سئل عن التصوف، فقال الخول في كل خلق سني، والخروج من كل خلق دني⁽¹¹⁾.

وتعريف القصاب: وهو التصوف أخلاق كريمة ظهرت في زمن كريم مع قوم كرام.

وتعريف الكتاني: وهو التصوف خلق فمن زاد عليك في الأخلاق فقد زاد عليك في الصفا⁽¹²⁾.

تعريف تتصل بالصفاء: وهو التعريف عند سهل التستري الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر⁽¹³⁾.

تعريف تتصل بالغاية وهي الحق: ومنها تعريف شيخ الجنيد وهو التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة⁽¹⁴⁾.

وتعريف ذي النون المصري الذي سئل عن المتصوفة فقال هم قوم آثروا الله عزوجل على كل شئ فأثرهم الله عزوجل على كل شئ⁽¹⁵⁾.

¹⁰ - عبد الكريم بن هوازن القشيري، الرسالة القشيرية، (القاهرة: دارالكتب الحديثة، 1966) 2: 552.

¹¹ - القشيري، الرسالة القشيرية، 1: 550.

¹² - القشيري، الرسالة القشيرية، 1: 555.

¹³ - السهروردي، عوارف المعارف، 43.

¹⁴ - القشيري، الرسالة القشيرية، 1: 552.

¹⁵ - القشيري، الرسالة القشيرية، 2: 551.

تعريف ترتبط بخصوص طريق التصوف: ومنها تعريف الجنيد عندما سئل عن الصوفية فقال هم أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم⁽¹⁶⁾.

تعريف المحدثين: ومنها تعريف الدكتور إبراهيم بسيوني: "التصوف تيقظ فطري، يوجه النفس الصادقة إلى أن تجاهد حتى تحظى بمذاقات الوصول، فالإتصال بالوجود المطلق"⁽¹⁷⁾. وتعريف الدكتور محمد ياسر شرف الذي يقول فيه: "وأرى أن تسمية "صوفي" قد أطلقت بمعنى الشخص الإنتقائي الذي يعتمد إلى القيام بالسلوك معين يتصف بالحكمة إذ يصطفى أفضل العادات والعقائد، ويتبعها فيؤدي ذلك إلى ظهور مخالفته الشائع من درجات السلوك المتدنية فكريا و أخلاقيا و اجتماعيا"⁽¹⁸⁾. ويلاحظ أن هذا التعريف ينحو منحى أخلاقيا واضحا.

التعريف المختار: أما التعريف المختار فهو تعريف الكتاني للتصوف بأنه "صفاء و مشاهدة" وهو الذي اختاره أستاذ المرحوم الدكتور محمد أحمد مصطفى ومن قبله الإمام الدكتور عبدالحليم محمود⁽¹⁹⁾ وهو رغم شدة إيجازه إلا أنه يلخص مراحل الطريق إلى الله تعالى عند الصوفية، وهو طريق وعر المسالك، عميق الأغوار، كثير العقبات، و ذلك لأن هذا التعريف هو "الأجمع والأدق" فالصفاء يشمل الناتج عن طريق التصفية المقصودة، والذي هو منحة وهبة من الحق، وهو جامع لكل الجوانب الخلقية، وما يتعلق بالعبادة والزهد والمجاهدة والإخلاص، وابتغاء وجه الحق والرضا والتسليم للمقادير.

وأما القسم الثاني فيشمل جميع الأحوال الروحية، و جميع النتائج التي يتميز بها الصوفية لتميز نوع المعرفة والإدراك عندهم عن طريق القلب⁽²⁰⁾. وإذا كانت العبادات في الإسلام لتركبة النفس، وتطهير المجتمع، فإن العبادات في التصوف هدفها ربط القلب بالله للتلقى عنه مباشرة، والفناء فيه، واستمداد الغيب من الرسول، والتخلق باخلاق الله حتى يقول الصوفي للشئ كن فيكون، و يطلع على أسرار الخلق، و ينظر في كل الملكوت. ولايهم في التصوف أن تخالف الشريعة الصوفية ظاهر الشريعة المحمدية الإسلامية، فالحشيش والخمر و اختلاط النساء بالرجال في الموالد، وحلقات الذكر، ذلك لايهم، لأن

¹⁶ - القشيري، الرسالة القشيرية، 2: 553.

¹⁷ - دكتور إبراهيم بسيوني، نشأة التصوف الإسلامي (بيروت: دارالمعارف القاهرة، 1969) 28.

¹⁸ - دكتور محمد ياسر شرف، حركة التصوف الإسلامي (بيروت: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986) 33.

¹⁹ - دكتور عبدالحليم محمود، المقدمة الدراسية للمنقذ من الضلال للغزالي (القاهرة: دارالكتب الحديثة، 1974)

173 إلى 177.

²⁰ - دكتور محمد أحمد مصطفى، علم التصوف، 38.

للولي شريعته التي تلقاها من الله مباشرة، فلا يهم أن يوافق ماشرعه الرسول محمد لأن لكل واحد شريعته، و شريعة محمد و شريعة الشيخ الصوفي للخواص⁽²¹⁾. ويتضح في هذا النص التحامل على الصوفية جميعا الناتج عن تعميم الأحكام، والتسرع في الحكم على المجموع بما قد يصدر عن بعض الأفراد، وذلك قد يؤدي إلى انعدام الموضوعية والإنصاف، وهو ما يبدو من خلال هذا الرأي. وليس الأمر قاصرا على إيراد التهمة فحسب، بل إن من الكتابات المعاصرة من يرى أصحابها وضع الصوفية والشيعة في خندق واحد، وفي ذلك يقول أحدهم ومن العقائد الشيعية الباطنة المعروفة: نسخ الشريعة، ورفع التكليف. أما نسخ شريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه فيؤمن به جميع فرق الباطنية، ولو أنهم يتظاهرون بإنكاره⁽²²⁾. ثم ينقل عن كتب الشيعة ما يؤكد به وجهة نظره، ثم يقول عن الصوفية: "ولقد ورد في كتب الصوفية حكايات كثيرة لا تعد ولا تحصى تدل على إتيان المتصوفة المنكر، وإباحتهم المحظورات و تركهم الواجبات ومع ذلك عدوهم من أولياء الله⁽²³⁾". وبما يسترعى النظر هنا أن الصوفية المحققين سبقوا خصوم التصوف بتوجيه سهام النقد للمنحرفين والأدعياء، والقائلين بأفكار خارجة مثل القول بإسقاط التكليف الشرعية، وهو موضوع الفقرة التالية.

نقد الصوفية لفكرة إسقاط التكليف الشرعية

قبل إيراد وجهة النظر الصوفية أصحاب المؤلفات الشهيرة تجدر الإشارة إلى إتجاه عام اتخذته الصوفية الكبار، وهو يعبر تعبيرا واضحا عن ضرورة استناد التصوف، واستمداده من الكتاب والسنة، ويشير ابن الجوزي رغم حدته مع الصوفية إلى هؤلاء بقوله: "وما كان المتقدمون في التصوف إلا رؤساء في القرآن والفقه والحديث والتفسير⁽²⁴⁾". ويقوم كثيرا بالنقل عنهم مايفيد تقييدهم بالشرع الحنيف مثلما ينقل عن أبي الحسين النوري قوله: "من رأيت يدعى مع الله عزوجل حالة تخرجه عن حد علم الشرع فلا تقربنه، ومن رأيت يدعى حالة لا يدل عليها دليل، ولا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه على دينه⁽²⁵⁾". وقد أسس الصوفية الكبار أقوالهم و أفعالهم على ما جاء في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، ومن هنا تأتي إشارات شيوخهم، وفي ذلك يقول أبو زيد البسطامي: "لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى في

²¹ - عبدالرحمن عبدالخالق، فضائح الصوفية، (كتاب مطبوع وقف لله تعالى، س ن) 47 و 48.

²² - إحسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصادر (باكستان: إدارة ترجمان السنة، 1986) 260.

²³ - إحسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصادر، 267.

²⁴ - ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي، تلبيس إبليس (بيروت: دارلكتب العلمية، 2001) 323.

²⁵ - ابن الجوزي، تلبيس إبليس، 168.

الهواء فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، و أداء الشريعة⁽²⁶⁾." ويقول أبو حفص الحداد: "من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره فلا تعده في ديوان الرجال⁽²⁷⁾". وسيد الطائفة الإمام الجنيد يقول: "من لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث لا يقتضى به في هذا الأمر؛ لن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة⁽²⁸⁾". فإذا تصفحنا مؤلفات الصوفية وجدنا الجانب النقدي واضحاً في هذه المؤلفات، وخصوصاً عند عرضهم لمشكلة القول بإسقاط التكليف الشرعية، ونورد في هذه الفقرة وجهة نظر بعضهم علماً بأننا سنعرضها طبقاً للترتيب الزمني.

1- أبو عبد الرحمن السلمي 412هـ: يتحدث السلمي عن محاوله بعض الأدعياء التحلل من التكليف الشرعية ولهذا نراه يجعل من الشروط الصوفية الصادقين أن لا تحملهم المعرفة على تخطي شيء من الشرع و آدابه والتهاون به، بل يجتهدون في تعظيم الشرع، وظاهر العلم في كل وارد، و يتكون الدعاوى كلها ماصغر منها وما كبر⁽²⁹⁾. بالإضافة إلى أن السلمي قام بنقد المدعين و إخراجهم من دائرة التصوف، و في ذلك يقول والذي يدعى هذا المذهب، ويبطل عمل الجوارح من العبودية والخدمة والطاعة، وتعطيل القلب من الذكر والإرادة و جمع الهمة، و معرفة الواردات، و إخلاص النية، ولا يؤدي حقه، ويعرف حقائقه، وهو يدعى ما ليس له ليقربه ذلك من الناس، و يجعله حرفة يأكل بها، و يأخذ الوقت الطيب. فإذا بدت له الحقائق من الفقر والطاعة والذل والخدمة والمكروهات و طولب المجاهدات فروذهب، وخسروافتضح، وصار بترك هذه الأوصاف خارجاً عن دعواه، وهو متصنع يلبس المرقعات والتصنعات بلا خشية ولا مراقبة ولا ورع ولا مجاهدة ولا ذكر ولا معاملة، فإنه إنما يخسر و يسخر من نفسه. فالتصوف يلعنه، والدعاوى تحجبه، والشيطان يقربه، والملائكة تبعه، والله عزوجل يمقته، و أهل تصوف الحقيقة خصماؤه⁽³⁰⁾. فالسلمي في هذين النصين يرفض بشدة أي تهاون في أداء التكليف الشرعية، أو إسقاطها بأي حال من الأحوال.

2- أبو القاسم القشيري 465هـ يرصد الإمام القشيري بعض الظواهر السلبية في المجتمع المسلم في عصره.

²⁶ - القشيري، الرسالة القشيرية، 1: 82.

²⁷ - القشيري، الرسالة القشيرية، 1: 96.

²⁸ - القشيري، الرسالة القشيرية، 1: 107.

²⁹ - أبو عبد الرحمن محمد بن حسين السلمي، المقدمة في التصوف (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، 1987) ص 128.

³⁰ - السلمي، المقدمة في التصوف، 128.

ومنها: الإستخفاف بأداء العبادات، والإستهانة بالصوم والصلوة، وهذه الظواهر وغيرها دعت إلى تصنيف رسالته في التصوف، يقول القشيري في بدايتها وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة، ورفضوا التميز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الإحترام وطرح الإحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلوة، وركضوا في ميدان الغفلات و ركنوا إلى اتباع الشهوات، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات، والإرتفاق بما يأخذونه من السوق والنساء و أصحاب السلطان، ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، و أنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه وهم محو، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، و أنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية، وزالت عنهم أحكام البشرية⁽³¹⁾. هذه من السطور الأولى في الرسالة القشيرية يرفع فيها صاحبها صوته بالشكوى من هؤلاء الأدعياء الذين كثرت جرائمهم.

ومنها: الإسخفاف بالعبادات، والإستهانة بالصوم والصلوة، ولهذا نرى القشيري يختم رسالته ببعض الوصايا منها قوله وبناء هذا الأمر وملاكه على حفظ آداب الشريعة، وصون اليد عن المد إلى الحرام والشبهة، وحفظ الحواس عن المحظورات⁽³²⁾.

3- الغزالي 505هـ: يتناول الغزالي المسألة تناولا مغايرا حيث يقول بل معنى ارتفاع التكليف عن الولي أن العبادة تصير قرة عينه، وغذاء روحه بحيث لا يصبر عنه، فلا يكون عليه كلفة فيه. وهو كالصبي يكلف حضور المكتب، ويحمل على ذلك قهرا، فإذا اكتمل بالعلم صار ذلك ألد الأشياء عنده، لأنه يأكله بشهوة و يلتذ به فأى معنى لتكليفه؟ فإذا تكليف الولي محال، والتكليف مرتفع عن الولي بهذا المعنى، لا بمعنى أنه لا يصوم، ولا يصلى، ويشرب و يزن. وكما يستحيل تكليف العاشق النظر إلى معشوقه، وتقبيل قدميه، والتواضع له، لأن ذلك منتهى شهوته ولذته، فكذلك غذاء روح الولي في ملازمة ذكره، وامتنال أمره، والتواضع له بقلبه، لا يمكنه إشراك القلب والقلب في الخضوع إلا بصورة السجود، فيكون ذلك كمالا للذة الخضوع والتعظيم حتى يشترك في الإلتذاذ قلبه⁽³³⁾. فالتكليف عند الغزالي بمعنى المشقة، وهو يرفض المعنى الذى يدل على إسقاط التكليف، وإتيان المنكر، وتحدر الإشارة إلى أن الإمام الغزالي قد أفرد

³¹ - القشيري، الرسالة القشيرية، 02.

³² - القشيري، الرسالة القشيرية، 1: 185.

³³ - أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، المنقذ من الضلال (القاهرة: دارالكتب الحديثة، 1984) 290.

بعض مؤلفاته الهامة للرد على الباطنية، وهم غير الصوفية، وهاجم القائلين بهذه الأفكار المنحرفة في البيئة الإسلامية، الشاذة عن المنهج الإسلامي المبني على الكتاب والسنة.

4- السهروردي 632هـ: يوجه السهروردي نقده للدخلاء على المذهب الملامتي لا يرى فيه بأسا بينما ينحو باللائمة على الأدعياء المغرورين، وفي ذلك يقول فقوم من المفتونين سموا أنفسهم ملامتية، ولبسوا لبسة الصوفية، لينسبوا بها إلى الصوفية، وماهم من الصوفية بشئ، بل هم غرور و غلط، يتسترون بلبسة الصوفية وينتهجون مناهج أهل الإباحة، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى، ويقولون هذا هو الظفر بالمراد، والإرتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام، والقاصرين الأفهام، المنحصرين في ضيق الإقتداء تقليدا، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبعاد، فكل حقيقة ردتها الشريعة فهي زندقة. وجهل هؤلاء المغرورون أن الشريعة هي العبودية، والحقيقة هي حقيقة العبودية، ومن صار من أهل الحقيقة تقيد بحقوق العبودية، وصار مطالبا بأمور و زيادات لا يطالب بها من لم يصل إلى ذلك، لا أنه يخلع عن عنقه ربة التكاليف، ويخطر باطنه الزيغ والتحريف⁽³⁴⁾. وهكذا نرى السهروردي يدافع دفاعا حارا عن التكاليف الشرعية، ويرفض رفضا تاما فكرة إسقاط أو القول به. ثم يضع أيدينا على نوع آخر من الفكر الفاسد لهؤلاء الذين يرتكبون المنكرات زعما منهم أنهم مجبورون على ذلك، وفي ذلك يقول ومن أولئك قوم يزعمون أنهم يغرقون في بحار التوحيد، ولا يثبتون لنفوسهم حركة وفعلا، و يزعمون أنهم مجبورون على الأشياء، وأن لافعل لهم مع فعل الله، ويسترسلون في المعاصي، وكل ما تدعوا النفس إليه، ويركنون إلى البطالة و دوام الغفلة، والإغترار بالله، والخروج من الملة، وترك الحدود والأحكام، والحلال والحرام⁽³⁵⁾. فنقد السهروردي لهؤلاء ينصب على قولهم بإسقاط التكاليف الشرعية، سواء كانت في جانب الأمر أو النهي، سواء كانت حجتهم في ذلك الوصول إلى المراد عن طريق خلوص ضمائرهم، أو زعمهم بأنهم مجبورون في الحركة أو السكون.

خلاصة البحث

1. وجدنا خلال هذ البحث أن القول بإسقاط التكاليف الشرعية كان تهمة مثارة في وجه التصوف الإسلامي، ولكن الصوفية المسلمين كانوا أسبق من غيرهم في هدم هذه الفكرة و طرد القائلين بها صفوف الصوفية.
2. رأينا اهتمام شيوخ التربية الصوفية بالتكاليف الشرعية، وإلزام أنفسهم و أتباعهم بها، بل

³⁴ - السهروردي، عوارف المعارف، 2: 4 و 5.

³⁵ - السهروردي، عوارف المعارف، 2: 11 و 12.

- كانت مبالغتهم في ذلك محل مؤاخذة من خصومهم.
3. لا يوجد في التصوف الإسلامي الصحيح ظاهر يخالف باطنا، ولا حقيقة تخالف الشريعة، إذ أن الارتباط قائم لا ينفك بين باطن المسلم وظاهره، وبين فقه القلوب وفقه الجوارح.
4. القول بهذه الفرية الخطيرة مردود في وجه أصحابه، فأين هم من "وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ" (36)؟ ألم يروا كيف جعل الله تعالى السجود علامة قرب؟ أين هم من دعوة الله تعالى لعباده للتقرب إليه بالفرائض والنوافل؟ أين هم من السلوك العملي لسيدنا رسول الله ﷺ، ومبالغته في إلزام نفسه، وأخذها بالشدة التي لم يأخذ بها كلوصال في الصوم، وقضاء الوقت الطويل في صلاة الليل، ولما سئل عن ذلك أتت إجابته القيمة "أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا" (37). وكان ﷺ الأسوة الحسنة والمثل الأعلى في أداء الشعائر حتى آخر لحظات حياته الطاهرة.
5. المسلمون جميعا مطالبون بالمحافظة على التكليف الشرعية قولاً وفعلاً أمراً ونهياً.
6. الصوفية بصفة خاصة عليهم العبء الأكبر في إلزام أنفسهم و أتباعهم بضرورة الالتزام الكامل بالتكليف الشرعية، لأنهم هدف واضح لتوجيه الاتهامات المتعددة، ومنها تهمة إسقاط التكليف.
7. الباحثون في التصوف الإسلامي يجب عليهم تحري الدقة، وعدم التسرع في إصدار الأحكام، وعدم التعميم دون ضرورة، بل إن عليهم واجبا أكبر يمليه عليهم الضمير الديني، والحس الإيماني وهو ضرورة تمييز الحق من الباطل، والصحيح من السقيم في الفكر الصوفي دون جور أو مجاملة.
8. الحقيقة بلا شريعة باطلة، وشريعة بلا حقيقة عاطلة، فهما للمسلم كجناحي الطائر، لا يستقل أحدهما

³⁶ - العلق 96: 19-

³⁷ - ابو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، الجامع الصحيح (بيروت: دار طوق النجاة، 1422) 6: 135،